الكوميديا الالهية

نشأتها وتطورها — الموازنة بين رؤيا يوحنا — ورحلة رع

الكوميديا الالهية علمٌ على القصة الشعرية الخالدة التي نظمها دانتي عن رحلة تخيل انه رحلها في العالم الثاني وقد اخترت هذا الاسم عنواناً لهذا المقال لطرافته ومطابقته لموضوعه

لست أريد البحث في القصص التي تناول فيها كتّابها وصف العالم الثاني من حيث ما فيها من ابداع في الوصف وقوة في التخيّل ومتانة في الاسلوب وانما لي وجهة أخرى هي التحري عن أصل فكرة العروج الى العالم الثاني ووصفه والبحث عن منشأ هذا الخيال

سبق دانتي كثيرون من مواطنيه الى الموضوع ويظن انه أخذ عنهم الفكرة لكن يزعم بعض كتاب العرب ويشايعهم على ذلك فئة من المستشرقين ان مبدع هذا الخيال هو ابو العلاء بما جاء في رسالته الغفران من ذكر احوال العالم الثاني ووصف الجنة والنار ثم انتقلت الفكرة الى اوربا بعد ما احتك الافرنج بالمسلمين في الحروب الصليبية وترجموا علومهم وفلسفتهم الى لغاتهم حيث تأثر بها دانتي وغيره من كتّاب الافرنج. لكن هذا الرأي ضعيف فانك لا تجد بين رؤيا دانتي ورسالة الغفران وجهاً للشبهِ الاّ في الموضوع اما في السياق فهما جد مختلفين فأبو العلاء يصف العالم الثاني على لسان صاحب له ويذكر مباحثهُ لأهل هذا العالم من الكتّاب والشعراء المتقدمين في الأدب ونحوه وجل قصده من ذلك السخرية بهم ولم يعرض لأحوالهم من حيث ما هم فيهِ من شقاء او نعيم الاّ بالقدر الذي ينسجم مع هذا القصد. انظر حديثهُ مع الخنساء كيف يقول أنها أحبت ان تنظر الى اخيها صخر فاذا هو في الجحيم كالجبل الشامخ والنار تضطرم في رأسهِ فيقول لها اخوها اذ يراها لقد صح منزعمك فيّ مشيراً الى قولها من قصيدة في رثائهِ :

وان صخراً لتأتم الهداة بهِ كأنهُ علَمٌ في رأسهِ نار

وغاية ابو العلاء ان يوكس من شاعرية الخنساء بهذا البيت فصورها أخاها بالهيئة التي تصفها كيف يكون

اما دانتي فيصف في سياق رؤيا تخيل انهُ رآها رحلة له في العالم الثاني واسهب في ذكر احوال اهله وما هم فيهِ من عذاب او نعيم وتناول في احاديثه معهم شتى المسائل من دينية وفلسفية واجتماعية التي كانت تشغل اهل زمانهِ وكشف في كل مسألة عن رأيهِ وكان هو من دعاة الاصلاح يدين بآراء حرة نفي بسببها من وطنهِ فلورنسا

ثم خلاف آخر بين رسالة الغفران ورؤيا دانتي ذلك ان رسالة الغفران تتناول الماضي اما رؤيا دانتي فهي تستغرق من الزمن أسبوعاً ابتداؤه اليوم الثامن من ابريل سنة ١٣٠٠ فما

وقبل هذا التاريخ فهو من الماضي وما وقع بعده فهو من الغيب وهو يرويه كنبوءة عن المستقبل

وعلى هذا يكون القول بان دانتي أخذ فكرة الكوميديا الالهية عن ابي العلاء غير قائم على سند قوي. وفي ظني ان دانتي انما اخذ الفكرة لرؤياه عن سفر الرؤيا وهو الكتاب المنسوب الى الرسول يوحنا صاحب الانجيل المسمّى باسمه . ووجوه الشبه بينهما التي تؤيد ذلك كثيرة فاولاً ان كليهما رؤيا وثانياً ان لكل من الكاتبين دليلين في رحلته يتولدانه ويفسران له ما يراه واحد للعالم السفلي والآخر للعالم العلوي فليوحنا قبل عروجه الى السماء دليل يصفهُ بانهُ شبه ابن انسان ولدانتي فرجيل وليوحنا دليل في السماء من الملائكة ولدانتي بياتريس وهي فتاة كان الشاعر يحبها ثم ماتت قبل ان يتزوجها فحزن عليها وخلدها في قصائده وجعل مقرها السماء . وثالثاً ان رؤيا يوحنا تتناول زمنين الماضي والمستقبل فما قاله شبه ابن الانسان يتعلق بالماضي وما سمعه من الملك في السماء يتناول المستقبل وقد تقدم ان رؤيا دانتي هي كذلك تتناول زمنين

هذه هي الاوجه التي تجعلني اظن ان دانتي قد نسج رؤياه على منوال رؤيا يوحنا ثم اني أحسب ايضاً ان غير دانتي من كتاب الافرنج الذين نحوا هذا النحو وابا العلاء وسواه من كتّاب العرب الذين عرضوا لوصف الجنة والنار فيما حاكوا من قصص حول حديث المعراج قد تأثروا بهذا السفر كذلك على ان المجال لا يتسع الآن لعمل موازنة تثبت ذلك

لكن سفر الرؤيا ليس اقدم كتاب في موضوعه ولا ما يتضمنهُ من خيال اول خيال من نوعه فقد كان عند اسلافنا الاقدمين قبل يوحنا بآلاف السنين رحلة لرع اله الشمس كانوا يعرفونها باسم (آم دوات) اي ما يرى في العالم الثاني اذ كانت عقيدتهم ان السماء مرتكزة على جبلين احدهما غربي اسمهُ مانو والآخر شرقي اسمهُ باخو وان بها نهراً يخترقها من المغرب الى المشرق خلق صنواً لنهر النيل يوم خلقت الدنيا أُعد لتجري عليهِ سفينة رع اله الشمس في رحلتها اليومية في عالم الظلمات . وهذا العالم ينقسم الى اثنى عشر منطقة بعدد ساعات الليل من وقت غروب الشمس الى شروقها . لكل منطقة باب عليهِ حارس لا يأذن لاحد باجتيازه الا لمن يعرف اسمه . واخبار هذه الرحلة وما يتعلق بها من مناظر وأسماء سدنة الابواب منقوشة على جدران مقبرة سيتي الاول مساعدة للميت على اجتياز هذه المفازة الوعرة

ومما هو جدير بالملاحظة وهو مثار للدهشة ان سفر الرؤيا يشتمل على كثير من مشاهد هذه الرحلة كما ستتبين ذلك بعد من الموازنة بينهما

رؤيا يوحنا ورحلة رع

يقول صاحب الرؤيا في الاصحاح الرابع «وللوقت صرت في الروح واذا عرش موضوع في السماء وعلى العرش جالس وكان الجالس في المنظر شبه حجر اليشب والعقيق وقوس قزح حول العرش في المنظر شبه الزمرد» . والعرش بهذا الوصف كثير الشبه بسفينة رع فكلاهما عليه جالس وكلاهما له زينة

حوله من خطوط مختلفة الوانها فقد جاء في وصف السفينة انها مزينة من الخارج في خطوط افقية بألوان الجفت وهو حجر كريم لونه بنفسجي والزمرد ولونه اخضر مائل الى الزرقة والياشب ولونه اخضر لامع واللازورد وهو ازرق والذهب وهو اصفر ويتألف من مجموع هذه الالوان ما يشبه قوس قزح . والسفينة رمز لقرص الشمس والالوان حولها تمثل الشفق وكان الاقدمون يضعونها في معابد أمون رع في قدس الاقداس ويتوجهون اليها بالعبادة . واغلب الظن ان عادة وضع الزوارق في المساجد واضرحة الاولياء هي بقية من عقائد الجدود لم يمحها كر السنين ولا تغير الدين لاسيما وان احدها وهو الموجود في مسجد ابي الحجاج الاقصري القائم على اطلال معبد أمون له سبعة سفينة رع يغشاه من الوان

ويقول صاحب الرؤيا بعد ذلك في الاصحاح نفسه « وامام العرش سبعة مصابيح نار متقدة هي سبعة ارواح الله وقدام العرش بحر زجاج شبه البلور وفي وسط العرش وحول العرش اربعة حيوانات مملوءة عيوناً من قدّام ومن وراء والحيوان الاول شبه أسد والحيوان الثاني شبه عجل والحيوان الثالث له وجه مثل وجه انسان والحيوان الرابع شبه نسر طائر

وفي الاسطورة شيء يقرب من هذا كثيراً وذلك في سياق وصف المنطقة السادسة المساة منطقة المياه التي لا قرار لها حيث جاء فيه « وهناك اي على شاطىء النهر ثلاثة عروش تحرسها ثلاث حيات يندلع من افواهها لهيب نار وعلى العروش صور غريبة لن يصل الناس الى ادراك كنهها : على احدها رأس انسان وعلى الثاني جناح طائر وعلى الثالث كفل سبع

وفي الاصحاح الثالث عشر يقول صاحب الرؤيا « ثم وقفت على رمل البحر فرأيت وحشاً طالعاً من البحر له سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى قرونه عشرة تيجان وعلى رؤوسه اسم تجديف » وفي الفقرة العاشرة من هذا الاصحاح « واعطى اي الوحش ان يعطي روحاً لصورة الوحش »

في المنطقة السادسة الآنفة الذكر نظير لهذا الوحش واليك ما جاء في الاسطورة عنه : « هنا تعيش الحية العظيمة ذات الخمسة رؤوس وبين مطاويها يقف غابي رع اله البعث وعلى رأسه التاج وتحت قوائمه علامة الحياة التي تخول له ان يبعث الموتى وهو سوف يبعث رع وبرداليه الحياة »

لا خلاف بين الروايتين الا في الأسماء فما يسميه يوحنا اسم تجديف وهذا اللفظ يكنى به عند المسيحيين عما يعبد من دون الله هو في الأسطورة غابي رع وما يسميه صورة الوحش هو رع

ويقول صاحب الرؤيا في الاصحاح الحادي والعشرين « واما الخائفون وغير المؤمنين والرجسون والقاتلون والزناة والسحرة وعبدة الاوثان وجميع الكذبة فنصيبهم في البحيرة المتقدة بنار وكبريت » . وفي المنطقة الخامسة من الدوات المساة الخبيثة بحيرة كهذه ماؤها حميم دائمة الغليان أعدت لاعداء رع والخازن عليها صل مجنح له ثلاثة رؤوس وبين اجنحته يقف سقر Sokar وهو في هيئة رجل له رأس صقر وهو الذي يتولى تعذيب الخطاة . واني أرى بهذه المناسبة من مشابهة لفظة سقر العربية وهي علم على جهنم لاسم خازن النار في اعتقاد

الاقدمين على ما بينهما من علاقة معنوية ما يحسو الى الظن بان اصل اللفظ العربي هو ذلك الاسم المصري

ويقول صاحب الرؤيا في الاصحاح العشرين « ورأيت ملاكاً نازلاً من السماء معهُ مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده فقبض على التنين الحية القديمة الذي هو ابليس . والشيطان وقيدهُ الف سنة وطرحهُ في الهاوية واغلق عليهِ وختم عليه لكي لا يضل الامم في ما بعد حتى تتم الالف السنة وبعد ذلك لا بد ان يحل زماناً يسيراً »

وفي الاسطورة حديث كهذا في سياق الكلام عن المنطقة السابعة المسماة الحفرة السرية حيث تقول : « يعيش في هذه المنطقة أبيب يلقي فيها الرعب ويملأها بالمخاوف . وهو تنين عظيم هائل فاغر فاه ليشرب ماء النهر حتى تتحطم السفينة ويهلك رع فتسود من ثمَّ على الارض قوات الظلام وينقلص ظل الآلهة امام شوكة الخطية . على انه لا خوف على السفينة فان ايزيس الربة العظيمة محبية الموتى التي يدين لها الناس بالحب والعبادة واقفة في مقدمها باسطة ذراعيها تتمتم بكلمات القدرة

يعيش أبيب على شاطىء رملي في وسط النهر يزمجر فيرتج الدويات بصوته الا ان ايزيس التي لا يعرف الرعب الى قلبها سبيلاً تظل رابطة الجأش تعزم وتشير بيديها اشاراتها السحرية فيجمد التنين في مكانه ويعجز عن الحركة . عندئذ يهبط عليه من السفينة سلك وحردسيف فيوثقانه بالحبال ويثخنانه بالمدى وفي هذه الفترة بينما هو يتلوَّى على الرمال في قيوده تتابع السفينة سيرها في أمان حتى اذا جاوزت السفينة هذه المنطقة عاد أبيب الى سابق شأنه ووقف لها بالمرصاد ليهاجمها كدأبه فيفعل به سلك وحردسيف ما فعلاهُ من قبل لان أبيب خالد لا يهلك بالمدى او يضار »

لا خلاف بين الروايتين الا ما يقتضيه اختلاف العقائد من اختلاف الاسماء والسياق اما الجوهر فواحد فكلاهما يحدث عن حية قديمة والمراد هنا بالقديم الخلود يخشى منها على العالم ان تضله فتعتقل فترة من الزمن ثم تحل بعد ذلك . وفي الاصحاح الثاني عشر يقول صاحب الرؤيا « وظهرت آية اخرى في السماء هو ذا تنين عظيم احمر له سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى رؤوسه سبعة تيجان وذنبه يجر ثلث نجوم السماء » . لهذا التنين نظير في المنطقة الحادية عشر المسماة فوهة الكهف وتحدث الاسطورة عنه فتقول : « هناك على الجانب الاقصى من النهر النجوم و« شيدو » بينها وهو في هيئة افعى قرمزية ارجوانية يتألف بدنها من عشرة نجوم »

ويقول صاحب الرؤيا في الاصحاح الحادي والعشرين « وذهب بي — اي الملك — الى جبل عظيم عال وأراني المدينة العظيمة اورشليم المقدسة نازلة من عند الله ولمعانها شبه أكرم حجر كحجر يشب بلوري » ثم يزيدنا عنها بياناً بقوله « وأساسات سور المدينة مزينة بكل حجر كريم الاساس الاول يشب الثاني ياقوت ازرق الثالث عقيق ابيض الرابع زمرد ذبابي الخامس جزع عقيقي السادس عقيق احمر السابع زبرجد الثامن زمرد سلقي التاسع ياقوت اصفر العاشر عقيق اخضر الحادي عشر اسمانجوني الثاني عشر جشت »

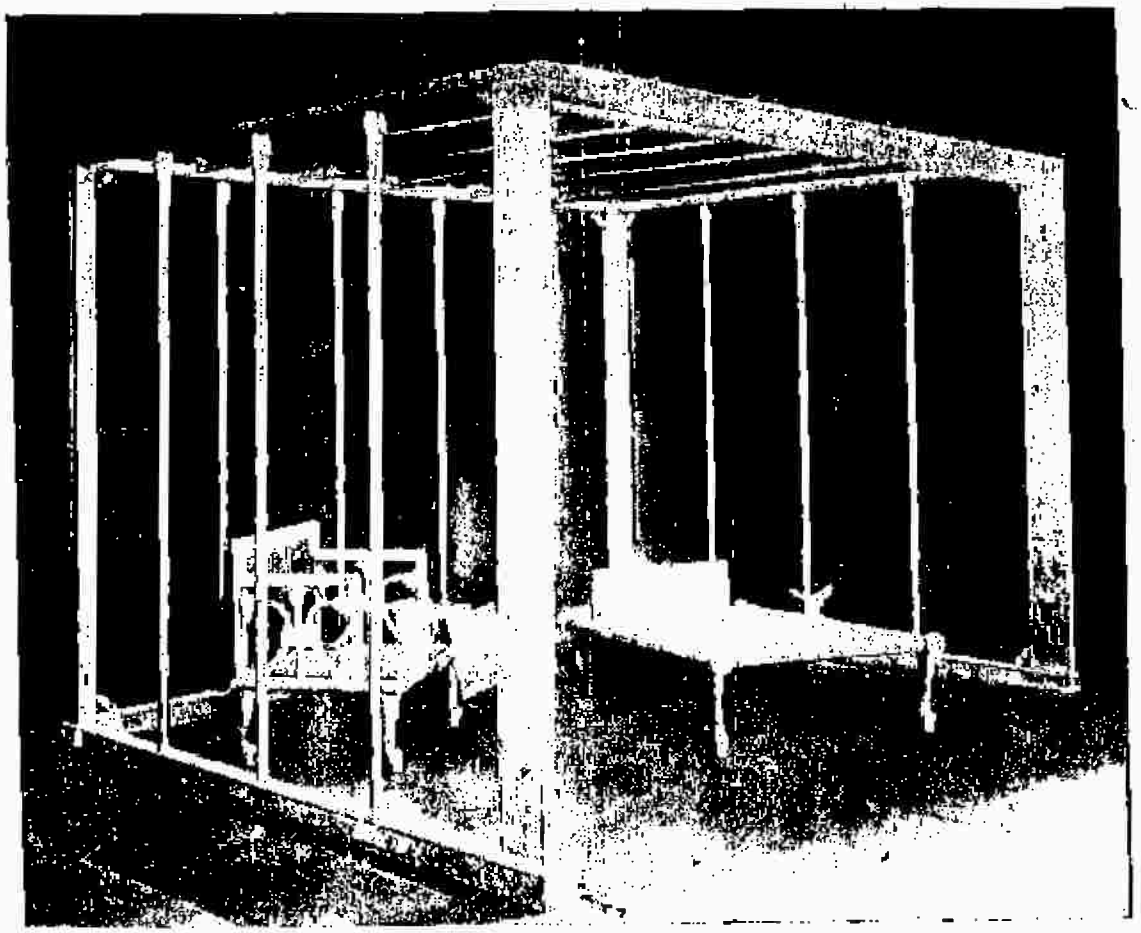

اثاث غرفة نوم للملكة حتب حرس والدة خوفو باني الهرم الكبير اعدادها اليها الملك سنفرو وذلك من
يوليو ١٩٣٢ محو خمسة آلاف سنة اكتشف هذه الآثار ورممها الاستاذ ريسنر الاميركي صفحة ٢٠٥

تشبه هذه المدينة في زينتها وفي كونها تنزل من السماء عند جبل على سفينة رع لدى مطلعها في الافق من المشرق عند جبل باخو وهي مزدانة بأبهى الالوان تتلألأ بالانوار

ثم يقول الرسول بعد ذلك « والمدينة لا تحتاج الى الشمس ولا الى القمر ليضيئا فيها لان مجد الله قد انارها » ويقول ايضاً « وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً « هوذا مسكن الله مع الناس وهو يسكن معهم وهم يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم الههم »

هذا الوصف لا ينطبق على شيء انطباقه على سفينة رع فانها بحسب اعتقاد الاقدمين مسكن آله الشمس وهو الذي ينيرها ومتى تظهر في الافق يصبح الاله مع الناس فترتفع من الارض الاصوات بتحيته وتلهج السن الخلق بتمجيده

يخلص لنا مما تقدم ان رحلة رع هي اقدم ما كتب في وصف العالم الثاني في سياق رحلة. وقد رأينا من وجوه الشبه بينها وبين رؤيا يوحنا ما يحمل على الظن بأن يوحنا كان يعرفها وتأثر بها. ولكي تتم الفائدة سأجتزىء من سيرة الرسول يوحنا بنبذة تبين كيف تهيأ له ان يعرف اساطير الاولين

يوحنا احد الحواريين اتخذ افسس مقراً له وهي بلدة آسيا الصغرى وانشأ ينشر بالدين الجديد في تلك البلاد وكانت تابعة لرومية فلما بلغ خبره الى الامبراطور وهو اذ ذاك دوميتيانوس وكان وثنياً يتطوى على اشد العداء للدين الجديد امر بنفيه في سنة ٩٥ للميلاد الى رومية ثم الى جزيرة بطمس حيث كتب الرؤيا. وتدفقي في اثني نحو سنتين لان دوميتيانوس قتل في سنة ٩٦ فعاد يوحنا في السنة التالية الى افسس حين كتب انجيله ورسائله. ومما هو جدير بالنظر انه في زمن هذا الامبراطور شيدت في العاصمة الرومانية المعابد لاوزيريس وكان يعرفه الرومان باسم سيرابيس والاهة ايزيس وهما من آلهة المصريين اذ يحدو ذلك الى الظن بأن الديانة المصرية كانت راسخة البناء في تلك البلاد ويكون من المحتمل اذن ان يوحنا وهو في منفاه في دير الوثنية قد ألم بطرف من اساطير الاولين ووقف على آرائهم في العالم الثاني فكتب رؤياه وهو متأثر بخيالهم وافكارهم مخالطها شيء من ذلك كما رأينا

ولما انتشرت المسيحية وبلغت الكنيسة الذروة من السلطان في القرون الوسطى تأثرت الفنون والآداب بالدين واصطبغت بصبغته اذ أنشأ الكتاب ورجال الفن منقادين بعاطفتهم الدينية او مترفقين لرجال الدين يستوحون القصص الدينية ويلتمسون منها مادة لهم. ومن المواضيع التي استرعت انتباه الادباء وحفزت خيالهم وصف العالم الثاني الذي جاء به سفر الرؤيا فاخذوا يحاكونه وينسجون على منواله. ومن ثم اصبحت الكتابة في هذا الموضوع عملاً فنياً لا يمت الى الدين بسبب

وبعد فهل ينصف الادباء حين يعرضون لدانتي أو غيره من كتاب الكوميديا الالهية فيذكرون مصر وقد ثبت انها هي التي ابتدعت هذا الخيال ويعرفون لها فضل المتقدم ؟ انا لنرجو ذلك وما هو بعزيز عليهم متى تجردوا من الغرض وكانوا كراماً